# المؤرخ بهاء الدين بن شداد حياته ومنهجه

دكتور / محمود محمد الحويرى
مدرس تاريخ العصور الوسطى
بكلية آداب سوهاج ـ جامعة أسيوط

تحتل السير والتراجم مكانة مرموقة فى التدوين التاريخى . واذا كان من المعروف أن التاريخ هو دراسة أى جانب من جوانب الحياة الإنسانية ، وإجلاء غموضها ، وتناولها بالنقد والتحليل ، فان السير والتراجم هى البحث عن حقيقة الذات فى حياة الإنسان ، والكشف عن الدور الذى قام به ، من واقع البيئة التى حوله،والأحداث المحيطة به ويمكن القول إن السيرة كمبحث تاريخى ، تمثل حياة إنسانية متكاملة من الميلاد إلى الممات بل انها تصل إلى ماقبل الميلاد من تاريخ الآباء والأجداد ، وتمتد إلى مابعد الموت ، فيما تخلفه من أثر فى جيلها والأجيال اللاحقة ( ١ )

كذلك يمكن القول ان التراجم والسير هى تلك التى تتناول بالتعريف بحياة رجل أو أكثر تعريفا يطول أو يقصر ، ويتأثر ذلك التعريف بثقافة كاتب الترجمة ، ومدى قدرته على رسم صورة واضحة دقيقة للمترجم له أو صاحب السيرة ، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : هل هناك فرق بين الترجمة والسيرة الواقع أنه ليس فى الفروق اللغوية مايبين الفرق بينهما على وجه التحديد، إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما الفيصل فى هذا . فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لايطول نفس الكاتب فيها ، فاذا ماطال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة ( ٢ ) .

والسير والتراجم أقرب إلى التأثير فى نفس القارىء من كل كتابة تاريخية غيرها حيث تجيش بكافة الانفعالات والعواطف التى تموج فى أعماق النفس

---

(١) حسين فوزى النجار : التاريخ السير صـ ٤٥
(٢) محمد عبد الغنى حسن : التراجم والسير صـ ٢٧

البشرية ، والتى تتجرد منها الواقعة التاريخية ، كحدث يخضع للتفكير العلمى الصحيح . ومن الأسباب التى تجعل السير والتراجم أحب مادة تاريخية إلى نفس القارئ أيضا ، هو أن الإنسان لازال ينشد البحث عن ذاته ، أو السعى إلى معرفة غيره ، بماقام من أعمال كانلهاتأثيرها فى مجتمعه. وبمعنى آخر يسعى المرء دائما إلى معرفة أوجه الكمال والنقصان فى حياة غيره ، وكأنه يريد أن يطمئن إلى ذاته ، بما يزاوله غيره من نشاط إنسانى .

ومن الواضح أن العرب فى كتابة السير والتراجم ، قاموا بدور بالغ الأهمية ، إذ تميزت التراجم بكثرتها وتنوعها ، والدقة فى ترتيب الأعلام المترجمه والاهتمام بتبويب موضوعات التراجم ، وتفنن المؤرخون العرب فى الترجمة للبلاد والأقاليم ، والترجمه لأعلام الرجال والنساء وتحقيق المواليد والوفيات وضبط الأعلام وتحقيق المتشابه منها ( ١ )، بحيث نستطيع القول ان كتابة السير والتراجم على أيدى المؤرخين العرب ، بلغت مالم تبلغه على يد الاغريق والرومان فضلا عن مؤرخى العصورالوسطى .

ولاريب أن كتابة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تعد أول عمل من أعمال التدوين التاريخى وأقدمه ظهورا ، وذلك لحاجة المسلمين إلى معرفة السيرة النبوية ، التى كانت ولاتزال المحور الذى تدور حوله نشأة الإسلام وتطوره وانتشاره ( ٢ ) . وحرص مؤرخو السير والتراجم خلال القرون الستة التالية على العناية بتدوين تراجم الأعيان ، وعلماء الدين والعلماء ، والشعراء والأدباء ، إلى أن جاء القرن السابع الهجرى ، فاختفت ظاهرة الترجمة للأموات السالفين ، وحلت محلها سير الأحياء من السلاطين والملوك ومؤسسى الدول ، من ذلك ماكتبه المؤرخ بهاء الدين بن شداد عن سيرة صلاح الدين الأيوبى تحت عنوان النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : التراجم والسير صـ١٢

(٢) هرنشو : علم التاريخ صـ٣٥

ومن المعروف أن ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبى ، قام بتدوينها اثنان من معاصريه ، يعتبران بسبب اتصالهما الشخصى الوثيق به ، مؤرخين خاصين به،وأحدهما هو العماد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ( ١٢٠٠ م ) كتب بأسلوب مغرق فى الأدب ، تاريخ فتح الشام وفلسطين ، وهو الكتاب المعروف «بالفتح النفسى فى الفتح القدسى ( ١ ) حرص فيه على تسجيل أعمال صلاح الدين وحروبه،منذ الاستيلاء على بيت المقدس سنة ١١٨٧م، غير أن ماالتزمه العماد من السجع والتزويق والمحسنات البديعية جعل على الوقائع التاريخية أمرا بالغ الصعوبة . ( ٢ ) أما المؤرخ الآخر ، وهو بهاء الدين بن شداد ، الذى دخل فى خدمة صلاح الدين سنه ١١٨٧م ، وصار لايفارقه منذ ذلك الوقت ، فسنحاول فى بحثنا هذا القاء الضوء عليه كمؤرخ لسيرة صلاح الدين من ناحية ، والحروب الصليبية ببلاد الشام من ناحية أخرى.

**مولد ابن شداد ونشأته وثقافته :**

وابن شداد هو أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عقبة بن محمد عتاب الأسد الحلبى ، الملقب بهاء الدين ، وقد عرف بابن شداد جده لامه لأن أباه توفى وهو طفل صغير ، فربى ونشأ فى كنف أخواله بنى شداد ولهذا أنسب إليهم، وعرف بهم وكان يكنى أولاأبا العز ، ثم غير كنيته ، وجعلها أبا المحاسن ( ٣ ) .

ولد ابن شداد بمدينة الموصل فى رمضان سنة ٥٣٩ هـ ( مارس١١٤٥م ) وتوفى بحلب سنة ٦٣٢هـ ( ١٢٣٩م) وبذلك عاش ثلاثا وتسعين سنة ، أى

---

(١) المقصود بالقسى نسبة إلى قس بن ساعدة الايادى خطيب العرب فى العصر الجاهلى ، والقدسى نسبة إلى القدس .

(٢) السيد العريني : مصر فى عصر الايوبيين ، صـ١٠٥

(٣) السبكى : طبقات الشافعية ، صـ١٥١

أبن خلـكان : وفيات الاعيان ، حـ٧ صـ٨٤

أبوا الفـدا : المختصر فى أخبار البشر ، حـ٣ صـ١٦٣

قرابة قرن من الزمان[١] ولم تمدنا المصادر بأية معلومات عن طفولته وصباه فى مدينة الموصل، ولابد أنه جرت عليه تقاليد أهل هذا العصر فى تعليم أولادهم، فتلقى تعليمه الأولى فى تلك المدينة، وحفظ بها القرآن الكريم وعندما شق عن الطوق قرأ كتبا فى علوم الحديث والتفسير والفقه والقراءات والأدب. وكانت مدينة الموصل فى القرن السادس الهجرى، زاخرة بالعلماء المتخصصين فى العلوم المختلفة ، بالاضافة إلى أن المدارس التى أنشاها ملوك بنى زنكى فى تلك المدينة جعلت من له الرغبة فى العلم والإفادة ومواصلة التحصيل يجد بغيته ، لاسيما أن كبار العلماء كانوا يتنقلون بين مراكز العلم المختلفة فى مصر والشام والموصل وبغداد ومكة وغيرها ، للتدريس ومنح الاجازات .

وأول الأساتذه الذين أخذ عنهم ابن شداد الشيخ يحيى بن سعدون القرطبى المتوفى سنة ٥٦٧ هـ ( ١١٧١م ) ، فقد لازم عند قدومه الى الموصل ، وقرأ عليه بالطرق السبع ، وأتقن عليه فن القراءات واروية الحديث وشروحه والتفسير[٢] . ومن أساتذته الذين أخذ عنهم بالموصل الشيخ أبو البركات عبد الله بن الخضربن الحسين المعروف بابن الشيرجى المتوفى سنة ٥٧٤ هـ ( ١١٧٨م ) ، وأخذ أيضا عن الشيخ مجد الدين أبى الفضل عبد الله بن أحمد الطوسى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٢م )[٣] وأخيه عبد الرحمن بن أحمد الطوسى[٤] .

ومن الذين تتلمذ لهم ابن شداد وقرأ عليهم ، القاضى فخر الدين أبو الرضا سعيد بن عبد الله الشهر زورى ، والحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله

---

(١) أبن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، حـ٥ صـ١٥٨
Huart : Ahist. of Arabic Literature. P 131.

(٢) وفيات الاعيان : حـ٦ صـ١٧١ - صـ١٧٣ ، حـ٧ صـ٨٤-صـ٨٥

(٣) وفيات الاعيان : حـ٧ صـ٨٥

(٤) السبكى : طبقات الشافعية ، حـ٥ صـ١٥١

ابن محمد الاشيرى الصنهاجى المتوفى سنة٥٦١هـ ( ١١٦٥ - ١١٦٦م)،والحافظ سراج الدين أبو بكر محمد بن على الحيانى[١]، وأسعد حفدة العطارى صاحب البغوى ، ويحيى الثقفى[٢]

ودرس إبن شداد الخلاف بعمق ، وأخذ عن بعض أساتذته ، مثل الضياء ابن أبى حازم صاحب محمد بن يحيى الشهيد النيسابورى ، ثم باحث فيه متفننى أصحابه كالفخر النوقانى ، والبروى ، والعماد النوقانى ، والسيف الخوارى والعماد الميانجى[٣]

وثمة شك حول تلمذة ابن شداد لأبى بكر محمد بن الوليد بن خلف المعروف بأبى بكر الطرطوشى ، وقد أثار ابن خلكان[٤] ذلك الشك عند ترجمته للطرطوشى ، إذ روى أن شيخه ابن شداد يعده من أساتذته الذين أجازوه،فى حين أن الطرطوشى ولد بالأندلس حوالى سنة٤٥١هـ (١٠٥٩م) وتوفى بثغر الأسكندرية سنة ٥٢٠هـ ( ١١٢٦م ) ، ويتعارض هذا مع ماذكره ابن شداد المولود بالموصل سنة ٥٣٩هـ ، وقد ترك ابن خلكان الباب مفتوحاً للتحقيق ، حتى لا ينسبه أحد إلى الغلط فى ذلك ، ويبدو أن هناك خطأ وقع فيه ابن شداد عندما عد الطرطوشى من مشايخه ، أو أن هناك طرطوشاً آخر لأن أبا بكر الطرطوشى لم يفارق الاسكندرية إلى بلاد الشام ، بعد أن قدم إلى مصر قبل سنة ١٥هـ،هذا بالإضافة إلى أن ابن شداد لم يزر مصر إلا فى أخريات عمره ، فأين تتلمذ له ؟[٥]

وبعد أن استوعب ابن شداد دراساته الدينية بمدينة الموصل ، شد الرحال إلى بغداد طلباً للعلم . وهناك أخذ عن بعض أساتذتها فى الحديث والفقه ، مثل

---

(١) وفيات الاعيان،حـ٧ صـ٨٥- صـ٨٦

(٢) طبقات الشافعية ، حـ٥ صـ١٥١

(٣) وفيات الاعيان ، حـ٧ صـ٨٦ - صـ٨٧
طبقات الشافعية ، حـ٥ صـ١٥١

(٤) وفيات الاعيان ، حـ٤ صـ٢٦٢ - صـ٢٦٤

(٥) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، صـ٣٢٦ - صـ٣٢٧

شهدة الكاتبة ، وأبى المغيث فى الحربية ، والشيخ رضى الدين القزوينى بالمدرسة النظامية . وتعتبر تلك المدرسة التى أنشأها الوزير السلجوقى نظام الملك عام ٤٥٧هـ (١٠٦٥م) أول مؤسسة علمية أكاديمية بمعناها الصحيح ظهرت فى الإسلام ، هيأت لطلابها أسباب العيش حتى انها صارت نموذجاً لما قام بعدها من مراكز التعليم العالى ، وقد تخصصت تلك المدرسة فى العلوم الدينية ، لاسيما أصول المذهب الشافعى ، والنظام الأشعرى السنى [١] وفى تلك المدرسة التى اجتذبت إليها طلاب العلم وقتذاك من مختلف أنحاء العالم الإسلامى كان ابن شداد صديقاً وزميلا للدراسة للفلكى والشاعر عمر الخيام ، وفيها أيضاً استمع إلى أعظم مشايخ عمره ، أولئك الرجال العلماء الذين كانوا يجوبون العالم الإسلامى من قرطبة الإسبانية حتى سمرقند ، ينتقلون من مدرسة إلى أخرى مثلما كان جارياً فى أوروبا العصور الوسطى ، تسبقهم شهرتهم فى علم من العلوم الدينية أو الدنيوية [٢] .

ولم يلبث ابن شداد أن عين معيداً بالمدرسة النظامية بعد وصوله إلى بغداد بقليل ، وكان ذلك فى سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م) ، أى وهو فى السابعة والعشرين من عمره وظل معيداً بها نحو أربع سنين ، عاد بعدها إلى الموصل فى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) حيث عين مدرساً بالمدرسة التى أنشأها القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزورى ، ولازم الاشتغال ، وانتفع بعلمه كثير من الطلاب [٣] .

وهكذا يتضح لنا أن ابن شداد قد اختار لنفسه الثقافة الدينية ، التى درسها على أيدى أساتذة متخصصين ، والتى تدور حول الحديث والتفسير والفقه والقراءات والخلاف ، أما الدراسات الأدبية فلم تشد إهتمامه وميوله . وبفضل

---

(1) Hitti : Hist ok the Arabs. pp. 410 - 411

عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، صـ ١٩٥ – صـ ١٩٦

(2) Lone-Poole : Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalom pp. 70 - 17.

(٢) وفيات الأعيان جـ ٧ صـ ٧٨ شذرات الذهب ، جـ ٧ صـ ٨٧

الدراسات الدينية بنى ابن شداد شهرته عليها ، فضلاعن أنها أهلته فيما بعد لمنصب القضاء .

وفى غضون ذلك ذاع حديث ابن شداد ، وارتفعت مكانته ، لما عرف عنه من رجاحة العقل ، والحكمة ، والاتزان فى التفكير ، ولذلك عهد إليه عز الدين مسعود أتابك الموصل ، بالسفارة فى مهام سياسية بالغة الأهمية ، فحينما اشتد الخلاف بين عز الدين وصلاح الدين الأيوبى ، بعد وفاة الصالح نور الدين سنة ١١٨١م، وأخذ المواصلة يؤلبون الصليبيين × والإسماعيلية ( الباطنية ) ضد صلاح الدين ، لم يسع الأخير إلا أن يسير لمهاجمة الموصل سنة ٥٧٨هـ ( ١١٨٢م ) ، والتمس صلاح الدين لذلك من المبررات ما أوردها فى رسالة وجهها إلى الخليفة العباسى ، جاء بها اتهام أمراء الموصل بالتحالف مع الصليبيين وإنزال الظلم برعاياهم ، ومماألة الأتابك السلجوقى فى فارس ،وتكتيل الجهود لمهاجمة صلاح الدين . وأدى ذلك إلى قيام عز الدين مسعود بنادب ابن شداد رسولا إلى بغداد ، ملتمساً من الخليفة التوسط فيما نشب من نزاع بينه وبين صلاح الدين وفى ذلك يقول ابن شداد (١) « وكنت إذ ذاك فى الموصل ، فسيرت رسولا إلى بغداد مستنجداً بهم » ولم يلبث الخليفة أن أرسل شيخ الشيوخ رسولا من قبله، ليتوسط بين الجانبين ، ولكن مهمته لم يكتب لها النجاح(٢) .

ثم قام عز الدين مسعود بمحاولة جديدة سنة ٥٧٩هـ ( ١١٨٤م ) لتسوية النزاع القائم بينه وبين صلاح الدين ، فبعث إلى الخليفة العباسى يطلب منه بذل الجهود فى التوسط فى هذا الأمر ، وكان أن ندب الخليفة شيخ الشيوخ ، الذى توجه إلى الموصل،وهناك إنضم إليه القاضى محيى الدين بن كمال الدين وابن شداد . وتوجه الجميع إلى دمشق، فلقيهم صلاح الدين بالإحترام والإكرام ، بيد أن أجرى من مفاوضات إنتهى إلى الفشل ، لأن صلاح الدين

---

(١) النوادر السلطانية، صـ٥٧

(٢) أبوشامة : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، حـ٢صـ٣٢

السيد العريني : مؤرخ الحروب الصليبية صـ١٩٨ — صـ١٩٩

اشترط أن يكونا صاحباً إربل والجزيرة على خيرتهما فى الإنتماء اليه أو إلى الموصل فرفض صاحب الموصل (١) . وعلى الرغم من فشل هذه السفارة إلا أنها كشفت النقاب عن بدء إهتمام صلاح الدين بابن شداد واعجابه به فعرض عليه أن يقوم بالتدريس فى مدرسة «منازل العز» بمصر ، ولكنه اعتذر حتى لا يبدو فى صورة المسئول عن فشل المفاوضات ، وعبر ابن شداد عن إعجاب صلاح الدين به ، ومحبته له ، بقوله : « ومن تلك الدفعة ثبت فى نفسه الشريفة منى أمر ، لم أعرفه إلا بعد خدمتى له» (٢)

وعلى الرغم من استعداد صلاح الدين لرفع راية الجهاد ضد الصليبيين سنة ٥٨٠ هـ ( ١١٨٤م ) الا أن مشكلة الموصل كانت لاتزال تؤرقه وتثير قلقه ، خاصة بعد أن استنجد أمير الموصل بأتابك فارس وأتابك أذربيجان فعزم صلاح الدين على المضى لقتال المواصلة سنة ١١٨٥ م ، بعد أن كتب إلى الخليفة العباسى يبلغه بعزمه ، وأن قصده رد — المواصلة إلى طاعة الخليفة ونصر الاسلام ، وصدهم عن ارتكاب المظالم . على أن زنكى صاحب سنجار توسط بين صلاح الدين ومسعود صاحب الموصل ، وكان المؤرخ ابن شـــداد من بين رسل مسعود إلى صلاح الدين ، أثناء نزوله بحران سنة ٥٨١ هـ ( ١١٨٦ م ) ، وفى هذه المرة تقررت قواعد الصلح بين الجانبين ، وترتب على ذلك أن صارت الخطبة لصلاح الدين فى جميع بلاد الموصل ، وديار بكر ، والبلاد الارتقية ، وضربت السكه باسمه أيضا (٣)

## اتصال ابن شداد بخدمة صلاح الدين :

توجه ابن شداد إلى مكة المكرمة حاجا سنة ٥٨٣ هـ ( ١١٨٨ م ) وبعد أن أدى الفريضة ، وزار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، عول على زيارة بيت المقدس وقبر الخليل عليه السلام ، وكان صلاح الدين قد استرد بيت المقدس آنذاك من أيدى الصليبيين . فنزل أولا بمدينة دمشق ، وتصادف

---

(١) النوادر السلطانية ، صـــ٦٤ — صـــ٦٥
الروضتين ، حـــ٢ صـــ٥٣

(٢) الروضتين ، حـــ٢ صـــ٥٣
وفيات الاعيان ، حـــ٧ صـــ٨٨
نظير سعداوى : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبى صـــ١٥

(٣) الروضتين ، حـــ٢ صـــ٦٥ — صـــ٦٦
Lane - Poole : Saladin., p.V.

تغيب صلاح الدين عنها وقتذاك ، وقيامه بفرض الحصار على قلعة كوكب فى المحرم سنة ٥٨٤ هـ ( مارس ١١٨٨ م ) فلما علم بقدومه إلى دمشق استدعاه اليه وظن ابن شداد أن صلاح الدين سيسأل عن ظروف مقتل الأمير شمس الدين بن المقدم ( ١ ) أمير الحج الشامى هذا العام ، ولكنه لما دخل عليه « قابله بالإكرام التام ، ومازاد على السؤال عن الطريق ، ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل ، وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه» فأفاض ابن شداد وأبدع فى شرحه ، للدرجة أعجبت صلاح الدين به . ولما خرج ابن شداد من عنده ، تبعه عماد الدين الأصفهانى ، أحد المقربين إلى صلاح الدين ، وأبلغه رغبة السلطان فى مقابلته عند العودة من زيارة بيت المقدس ( ٢ ) .

وبعد أن أتم ابن شداد زيارته ، عاد إلى دمشق ، وفى عزمه العودة إلى بلده الموصل ،وترك الوظائف العامة ، والانقطاع للدراسة والعبادة(٣) وكان صلاح الدين وقتذاك قد ارتحـــل من حصن كوكب ، ونزل على تل قبالة حصن الاكراد فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ هـ (يوليو ١١٨٨م) ، فاجتمع به ابن شداد ، وقدم اليه كتابا ألفه أثناء مقامه فى دمشق هذه المرة ، عن الجهاد وأحكامه وآدابه ، فأعجبه وداوم على مطالعته . ولما عزم ابن شداد على العودة إلى بلده الموصل ،طلب الإذن له ،غير أن السلطان رفض وطلب منه البقاء فى خدمته . وصادف ذلك هوى فى نفس ابن شداد ، بعد أن أدرك تعلقه بالسلطان ، وقد عبر عن ذلك بقوله : وكان الله قد أوقع فى قلبى محبته ، منذ رأيته يحب الجهاد ، فأجبته إلى ذلك ( ٤ ) ومنذ ذلك

---

(١) أختلف أبن المقدم أمير الحاج الشامى ، مع كمشتكين أمير الحاج العراقى عام ٥٨٣ هـ حول ضرب الكوسات والدبدبة ، فنهاه كمشتكين عن ذلك ، فلم يرجع أبن المقدم ، مما أدى إلى حدوث قتال بين الجانبين يوم الافاضة من عرفة ، جرح فيه أبن المقدم ثم حمل إلى منى ، حيث توفى – أنظر : أبن الوردى : تاريخه حـــ ٢ صـــ ٩٨ ، الذهبى : دول الإسلام ، حـــ ٢ صـــ ٦٨

(٢) النوادر السلطانية صـــ ٨٥

(٣) وفيات الاعيان ، حـــ٧ صـــ ٨٧

(٤) الروضتين حـــ١ مقدمة المحقق صـــ٢٤

نظير سعداوى : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين صـــ٢٨ – صـــ٢٩

الوقت ، لم يفارق ابن شداد صلاح الدين ليلا أو نهارا حتى حضر وفاته سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) .

والجدير بالذكر أن الطريقة التى اتصل بها ابن شداد بالسلطان صلاح الدين تختلف عن الطريق التى اتصل بها كبار الشخصيات المقربين للسلطان، مثل القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى . فالقاضى الفاضل أقدم الثلاثة صلة بصلاح الدين ، تولى كتابة الإنشاء له عندما اختاره الخليفة العاضد الفاطمى سنة ٥٦٤هـ ، ليتولى الوزارة بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه ، ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع صلة القاضى الفاضل بصلاح الدين حتى وفاته سنة٥٨٩ هـ (١) أما العماد الأصفهانى ، فبعد أن تدهورت مكانته بعد وفاة نور الدين محمود سنة ١١٧٤ م ، أزمع على الرحيل من الشام إلى الموصل ، بيد أنه لم يلبث أن عاد إلى الشام مرة أخرى ، واتصل بالقاضى الفاضل ، الذى توسط فى أمره عند صلاح الدين ، فعينه فى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) فى ديوان الإنشاء ، لينوب عنه فى الكتابة الديوانية (٢) . ومنذئذ لازم العماد صلاح الدين ، فى حله وترحاله ، يفشى مجالسه السياسية والعسكرية ، بيد أنه لم يصل إلى نفس المكانة العالية التى تمتع بها القاضى الفاضل عند صلاح الدين . أما ابن شداد فاننا نجد أن شخصيته هى التى مهدت له التعرف على صلاح الدين ، والدخول فى خدمته بطريق مباشر ، بعيدا عن أية وساطة(٣) .

**انتقاله الى حلب :**

عندما أدركت صلاح الدين الوفاة بعد مرض قصير ، انقسمت دولته الواسعة بين أبنائه وأخوته وأبناء عمومته وأمراء دولته . فكانت دمشق من

---

(١) الروضيتين ، حـ١ مقدمة المحقق صـ٢٤
نظير سعداوى : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الايوبى صـ٢٨ – صـ٢٩
(٢) الروضتين ، حـ١ صـ٢٥١
النجوم الزاهرة : حـ٦ صـ٧٤
(٣) الروضتين ، حـ١ مقدمة المحقق صـ٢٥

نصيب أكبر أبنائه الملك الأفضل ، الذى قدر لابن شداد مكانته ، وبالغ فى احترامه ، حتى صار « يشاوره فى جليل الأمور ودقيقها » . غير أن الملك الظاهر صاحب حلب ، لم يلبث أن أرسل لأخيه الأفضل خطابا يطلب منه القاضى ابن شداد للاقامة عنده للاستنارة برأيه ، والاستعانة به فى تصرف أموره ، فأجابه الأفضل إلى ذلك ( ١ ). وعندما قدم ابن شداد إلى حلب سنة ٥٩١ هـ ( ١١٩٥ م ) اتصل بخدمة صاحبها ، فأعظمه واحترمه وولاه قضاءها والإشراف على أوقافها ، وأخذت منزلته فى الارتفاع حتى حل عنده « فى رتبه الوزارة والمشاورة » (٢). ويعلق ابن واصل(٣) على ذلك قائلا : « ونال من المنزلة والحرمة والمكانة ونفاذ الكلمة مالا أعرف أن معمما ما فى عصرنا هذا ناله . »

باغت حلب مستوى مشرقا فى النشاط العلمى بعد أن انتقل اليها القاضى ابن شداد ، ذلك أنها كانت وقتئذ قليلة المدارس بها قلة ضئيلة من العلماء ، فأخذ ابن شداد على عاتقه مسئولية نشر التعليم بها ، وجذب الفقهاء اليها . وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد قرر لابن شداد اقطاعا جيدا يدر عليه الوفير من المال ، فى الوقت الذى ساهمت فيه أحواله الشخصية على توجيه أمواله فيما يعود بالخير على معاصريه . فقد سبق له الزواج من ابنتى الشيخ صالح عبد الرحمن بن علوان المعروف بابن الأستاذ واحدة بعد أخرى لما ماتت الأولى تزوج الثانية ، ولم تلد واحدة منهما له ولدا ، ولذلك توفرت له ثروة عظيمة ، شيد بها سنة ٦٠١ هـ ( ١٢٠٤ م ) مدرسة عرفت باسم المدرسة الصاحبية . وبنى إلى جانبها دار ا للحديث ، وشيد بينهما تربة ليدفن بها بعد وفاته . ( ٤ ) ولم يكن ابن شداد يستطيع القيام بمهمة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، حـ٣ صـ٨

(٢) وفيات الاعيان ، حـ٧ صـ٨٨ - صـ٨٩

(٣) مفرج الكروب ، حـ٥ صـ٨٩

(٤) مفرج الكروب ، حـ٥ صـ ٩١

أما ابن الوردى وابن الشحنة فقد ذكرا أن ابن شداد لم يتزوج فى حياته . أنظر (تاريخ ابن الوردى حـ٢ صـ١٦٠ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب صـ١١١

التدريس وقتئذ ، لكبر سنه وتثاقل حركته ، وضعف ذاكرته ، لذلك رتب أربعة معيدين يشتغل الطلاب عليهم. ومنذ أن بنى ابن شداد مدرسته، صارت حلب منارة للعلم وقبلته ، يحج اليها الأعلام من العلماء ، ويتوجه اليها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، طلبا للدين والدنيا .إذ كان طلابها يتناولون الطعام فيها ،وتجرى على كثير منهم رواتب سنوية ومما يدل على ازدهار حلب وقتذاك قول ابن خلكان (١) « ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد ، وحصل الاشتغال والاستفادة ، وكثر الجمع بها ، وصار للفقهاء — وخاصة فقهاء مدرسته — مكانة سامية ، وحرمة وافرة ، حتى انهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون فى شهر رمضان على سماطه » .

ولم يقتصر دور ابن شداد فى حلب على نشر النشاط العلمى بها فقط ، بل لعب دوراً هاماً فى التوفيق بين أفراد البيت الأيوبى فى مصر والشام ، وأثناء حرب الوراثة التى قامت فى ذلك البيت . فمن أجل إحلال الصلح والسلام ، وسعياً وراء إصلاح ذات البين وجمع الكلمة صار يتنقل بين حلب والقاهرة . وتشير المصادر إلى أنه وفد على القاهرة فى مهام دبلوماسية فى السنوات ٥٩٣هـ (١١٩٦—١١٩٧م) ، ٦٠٨هـ ( ١٢١١— ١٢١٢م ) ، ٦١٣هـ ( ١٢١٦م ) ، ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) ، ٦٢٩هـ ( ١٢٣١— ١٢٣٢م)(٢)

---

(١) وفيات الاعيان ، حـ٧ صـ٨٩ صـ٩١
شذرات الذهب، جـ ٥ صـ ١٥٨
بامخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، حـ٥ صـ١٢٩— صـ١٣٠

(٢) مفرج الكروب حـ٣ ، صـ٧٠ ، صـ٧١ ، صـ٢١٢ ، صـ٢٣٦ ، صـ٢٣٨ حـ٥ صـ٢٩ ، تاريخ ابن الوردى ، حـ٢صـ١٣٠ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب حـ٢٧ ووقة ٣٤ أحمد بن إبراهيم الحلبى : كنوزالذهب فى تاريخ حلب ، حـ١ ورقة ٩٣

وعلى أية حال ، فقد ظلت كلمة ابن شداد نافذة فى حلب ، ورأيه مطاعا حتى توفى الظاهر سنة ٦١٣هـ (١٢١٦م) ، وخلفه ابنه العزيز محمد ، وكان صغيراً ، فرعى ابن شداد شئونه ، وأحاطه بكثير من الرعاية ، وأبدى له النصح ، حتى بلغ سن الرشد واستقل بالحكم ، وعندئذ استولى عليه جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشرونه ويجالسونه وظلوا يسيطرون على مقاليد الأمور ، فلم يقبل ابن شداد الوضع الجديد ، ولم يسعه إلا أن يلزم داره حتى الأيام الأخيرة من حياته ، معززاً مكرماً ، ولازال إقطاعه جاريا عليه وكل مافى الأمر « أنه لم يبق له حديث فى الدولة ، ولا كانوا يراجعونه فى الأمور » (١) .

وتفرغ ابن شداد لرواية الحديث وشرحه لمن يأتى إليه فى داره ، بين صلاة المغرب وصلاة العشاء من كل يوم ، واستمر على ذلك يؤدى رسالته ، إلى أن نال منه الزمان وبلغ من العمر أرذله ، وأصابته الأمراض وضعف الشيخوخة ، فلزم مكانه لايستطيع أن يبرحه وقدم لنا تلميذه ابن خلكان صورة مؤثرة للعالم الشيخ الذى أقعدته الشيخوخة ، قائلا : « وكنا نسمع عليه الحديث ونتردد إليه فى داره ، فقد كانت له قبة تختص به ، وهى شتوية لا يجلس فى الصيف والشتاء إلا فيها ، لأن الهرم كان قد أثر فيه حتى صار كفرخ الطائر الضعيف ، لايقدر على الحركه للصلاة وغيرها الا بمشقة عظيمه . . . . » (٢)

**تلاميذ ابن شداد :**

ليس من شك أن عدداً كبيراً من الطلبة تتلمذ لابن شداد فى حلب ، وانتفع بعمله ، بسبب ماأوجده من نشاط علمى زاهر ، جعل تلك المدينة مقصداً لطلاب العلم الذين كانوا يجدون المأوى والنفقة الجارية . وقد أشاد المؤرخون بما بذله ابن شداد فى سبيل العلم ، باجتماع الألسن على مدحه ،

---

(١) مفرج الكروب : حـ٣ صـ٢٥ - صـ٢٥١
وفيات الاعيان ، حـ٧ صـ٩٩
كنوز الذهب ، حـ ١ ورقة ٩٣

(٢) وفيات الاعيان ، حـ٧ صـ٩١

Huart : Op. Cit pp. 191 - 192.

«والقلوب على حبه ، لمكارمه وافضاله ، ونفعه الطلبة فى العلم والدنيا» (١) ومما ينبغى ذكره أن بعض كبار المؤرخين المعاصرين لابن شداد أفادوا منه ، ويأتى فى مقدمتهم المؤرخ أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان (ت٦٨١هـ) ، صاحب كتاب « وفيات » الأعيان وأنباء أبنـــاء الزمان الذى يعتز اعتزازاً بالغا بأستاذه ، ويزيد فى الثناء عليه . وكان عندما يتحدث عنه ، يسميه « بشيخنا » اجلالا له ، وقد قال عنه : « كان شيخنا ، وأخذنا عنه كثيراً،وحصل الانتفاع بصحبته» (٢) أما المؤرخ عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان المعروف بأبى شامه (٦٦٥هـ) صاحب كتابى « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » و « الذيل على الروضتين » فقد ترجم لابن شداد فى كتابه الأخير فى وفيات سنة ٦٣٢هـ قائلا : « . . . . وكان للناس به نفع ، وكنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق ، وأجاز لى جميع مايرويه ، ثم سمعت عليه بمصر . . . »(٣) كذلك تتلمذ المؤرخ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (٦٩٧هـ) — صاحب كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » للقاضى ابن شداد ، ففى عام ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) سافر إلى حلب ، ولبث بها حوالى عامين ، اتصل خلالهما بعلمائها البارزين لا سيما ابن شداد . (٤)

ويدخل فى دائرة الذين تتلمذوا على ابن شداد وأفادوا من علمه وفقهه : ضياء الدين أبو البركات محمد المنصور بالقاسم الشهرزورى الموصلى (ت٦٠١هـ) (٥) والعلامة شمس الدين محمد بن سلطان الشيبانى (ت٦٠٤هـ) ومحمد بن يعقوب بن النحاس الأسدى الحلبى الحنفى (ت٦٩٥هـ) (٦) ،

---

(١) طبقات الشافعية ، حـــ٥ صـــ١٥١
شذرات الذهب ، حـــ٥ صـــ١٥٩
(٢) وفيات الاعيان ، حـــ٧ صـــ٨٨
(٣) صـــ ٦٣
(٤) حـــ٣ صـــ ٩
(٥) كنوز الذهب ، حـــ ١ ورقـــة ٩٢ .
(٦) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، حـــ١ صـــ٣٢٤ ، صـــ ٥٢٤

وجعفر بن محمد الأدريسى الفاوى (ت٦٩٦هـ) (١) وأبو عبد الله الفاسى المقرى ، والحافظ المنذرى ، والمؤرخ كمال الدين بن العديم (ت٦٦٠هـ) وابنه مجد الدين (ت٦٧٧هـ) ، وجمال الدين بن الصابونى ، والشهاب القوصى ، والشهاب الأبرقوهى ، وسنقر البطر ، وجماعة غيرهم (٢) .

**مؤلفاته :**

لم ينفرد المؤرخ بهاء الدين بن شداد من بين المؤرخين بالاسم الذى يحمله فهناك ابن شداد آخر يشترك معه فى أمور كثيرة ، ويختلط اسمه فى كثير من الأحيان باسمه فكل منهما يسمى ابن شداد . غير أن مؤرخنا كان يكنى بهاء الدين ، واسمه كاملا بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن شداد ، وسميه كان يكنى بعز الدين ، واسمه كاملا عز الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن شداد .

وقد سبق أن ذكرنا أن بهاء الدين بن شداد ولد فى الموصل ، ونشأ فيها . بيد أنه قضى معظم حياته فى حلب ، وتوفى فيها سنة ٦٣٢هـ . أما سميه فقد ولد ونشأ أيضا فى حلب ، ولكنه قضى معظم حياته فى القاهرة وتوفى فيها سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) أى أن هناك فارقا فى الوفاة بين الاثنين ، بلغ اثنتين وخمسين سنة (٣) . وإذا كان من المشاهد أن المؤرخين والبيلوجرافيين قد خلطوا بين المؤرخين عند إحصاء مؤلفات كل منهما فلا ريب أن لهم بعض العذر فى ذلك ، إذ من السهولة بمكان أن يقع أى باحث فى هذا الخلط ، لان الرجلين يحملان اسما واحداً متشابها ، وينتسبان إلى حلب ، ويشتركان فى كتابة التاريخ ، بالاضافة إلى أنهما توفيا فى قرن واحد ، وهو القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

---

(١) الادفـــوى : الطالع السعيد الجامع أسماء بخباء الصعيد صـــ١٧٩

(٢) طبقات الشافعية ، صـــ١٥١

(٣) النوادر السلطانية ، مقدمة المحقق صـــ٧

ومن المؤكد أن شهرة مورخنا بهاء الدين بن شداد قد طغت على شهرة سميه عز الدين بن شداد وفاقتها ، لأن الأول كتب سيرة صلاح الدين الأيوبى ، التى تناول فيها أحداث الحروب الصليبية فى بلاد الشام فى عهد صاحب السيرة ، ومن ثم صار الباحثون ينسبون اليه عددا من مؤلفات عز الدين . وكان حاجى خليفة المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ ، صاحب كتاب « كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون » (١) من الذين وقعوا فى خطأ عندما نسب كتاب « الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة » إلى المؤرخ بهاء الدين ، بدلا من مؤلفه الأصلى عز الدين . وأدى ذلك إلى أن وقع مؤرخون آخرون فى نفس الخطأ ، لأنهم نقلوا عن حاجى خليفه ، وأولئك المؤرخون هم : جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ آدب اللغة العربية » ( ٢ ) والدكتور أحمد أحمد بدوى فى كتابه « الحياة العقلية فى عصر الحرب الصليبية بمصر والشام » (٣) ، والغزى فى كتابه « نهر الذهب » ( ٤ )، وفرانز روزنثال فى كتابه « علم التاريخ عند المسلمين» (٥)

والكتاب الثانى الذى نسب بطريق الخطأ إلى بهاء الدين بن شداد ، فى حين أنه من وضع سميه عز الدين بن شداد ، هو كتاب « تاريخ حلب » . وكان أول من وقع فى خطأ النسبة بروكلمان فى كتابه « تاريخ آدب اللغة العربية» (٦) ، فقد ذكره ضمن مؤلفات بهاء الدين ، وأشار إلى وجود نسخة خطية منه فى مكتبه بطرسبرج . وشارك بروكلمان نفس الخطأ كليمنت هورات فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » (٧ ) ، والدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه «الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى»(٨) والدكتور السيد الباز العرينى فى كتابه « مؤرخو الحروب الصليبية » (٩)

---

(١) حـ١ صـ١٢٣ (٢) صـ١٦

(٣) صـ١٦٢ ، صـ٢٦٥ (٤) حـ١ صـ١٤٠

(٥) صـ٢١٥

(6) Brockelm ann : Geschichte der Arabischen Litterature. Supp. .I.p. 549.

(7) Huart : Op, Cit. p. 192.

(٨) صـ٣٠٩ (٩) صـ٢٠٢

أما المؤلفات التى قام بوضعها القاضى المؤرخ بهاء الدين بن شداد فهى : كتاب «ملجأ الأحكام عند التباس الأحكام» ، يتعلق بالأقضية ، وكتاب « دلائل الأحكام» ، تحدث فيه ابن شداد عن الأحاديث النبوية المستنبط منها الأحكام ، وكتاب « دروس فى الحديث » وهو مجموعة دروس القاها فى القاهرة حين سافر أليها فى احدى المهـــام الدبلوماسية سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م)، وكتاب « العصا » المقصود به موسى وفرعون» ، وكتاب «الموجز الباهر» فى الفقه وكتاب «أسماء الرجال الذين فى المهذب للشيرازى» ، وكتاب «فضائل الجهاد» الفه ابن شداد خصيصا لصلاح الدين ، وكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين ، وهو أهم مؤلفات بن شداد ، الذى أكسبه شهرة واسعة ، ووضعه فى مرتبة كبار المؤرخين .

**منهجه التاريخى :**

احتل القاضى المؤرخ ابن شداد مكانة هامة بين المؤرخين المسلمين ، بفضل كتابه : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية اليوسفيه » ، ذلك أنه قام بتأليف كتابه بوحى من نفسه واستجابة لمشاعـــره لاتقربا إلى صلاح الدين ، ولاتزلفا إليه ، ولاإجابة لرغبته ، وقد أوضح الغرض من تأليفه هذا الكتاب قائلا « وقصدت بذلك وجه الله تعالى فى فى حث الناس على الترحم عليه ( صلاح الدين ) وذكر محاسنه » (١)

ويقع كتاب النوادر السلطانية فى قسمين ؛ القسم الأول ، ويتناول فيه ابن شداد الحديث عن صفة من الصفات المرضية للسلطان ، مثل عدالته وكرمه وديانته يبدأها بآية قرآنية أو حديث شريف أو بهما معا ثم يذكر ما يعرفه عن تمسك السلطان بهذه الصفة ويذكر طرفا من نوادره فى ذلك ، ثم يختم الحديث فى هذه الصفة بالدعاء للسلطان أن يرحمه الله رحمة واسعة (٢) . أما فى القسم الثانى فيتحدث ابن شداد عن وقائع

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢١ .

(٢) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ٣٠٩ ص ٣١٠ ، الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية حتى مجىء الحملة الفرنسية ص ٣٢٤ — ٣٢٥ .

السلطان وحروبه وتقلبات الأحوال به حتى آخر حياته . ويرى فرانز روزنثال (١) فى كتابه « علم التاريخ عند المسلمين » أن كتاب النوادر السلطانية يمكن اعتباره من كتب المذكرات ، كما يمكن اعتباره أيضا سيرة حقيقية لصلاح الدين؛ إذ كثيرا مايصعب رسم خط واضح يميز بين تراجم الحكام وبين مذكرات المؤلف عن عصره . ومن المشاهد أن ابن شداد لم يخصص لحياة صلاح الدين الأيوبى الأولى وصفاته إلا نحو عشر الكتاب ، ثم أورد بعد ذلك أخباراً مطولة عن حروبه إلى وفاته (٢) .

اعتمد ابن شداد فيما أورده عن أحداث الفترة السابقة لسنة ٥٨٤ هـ ( ١١٨٨ م ) ، وهى السنة التى التحق فيها بخدمة صلاح الدين ، على ماتوافر لديه من أخبار عن تلك الفترة ، أما القسم الثانى من الكتاب الذى يشمل أحداث السنوات الخمس الأخيرة من حياة صلاح الدين فإن ماكتبه عنها يعتبر مصدراً تاريخيا لامثيل له وحجة فيما كتبه عن صلاح الدين ، بصفته شاهد عيان للأحداث وصديقا مقربا من السلطان ، وفى تلك الفترة تحرى ابن شداد الدقة والأمانة ، كتب مارآه واعتقد بوازع من ضميره مما جعل تلك الفترة تحمل بصمات الحقيقة الصادقة. (٣) وإذا كان ابن شداد قد مدح صلاح الدين بصراحة مطلقة ، وسار — كما يذكر المؤرخ لين بول — وفق النظرية الحديثة التى تقول ان « الملك لايخطئ » إلا أنه فى الواقع لم يؤله بطل سيرته ، ولم يخدع فيه بعبادة البطولة ، ولم يبعد عن الحيدة عندما كتب عن صلاح الدين ولم يجامل على حساب الحق ، الأمر الذى يجعلنا نخالف الرأى الذى أورده لين بول بعد ذلك من أنه لم يجد فى كتاب النوادر السلطانية غير قدر ضئيل من التحيز الشخصى والمبالغة الشرقية فى المدح (٤) .

---

(١) ص ١٤٥ — ص ١٤٦ .

(2) Lane - Poole : Op . Cit. P. VI.

(3) Gabrieli : The Araflic Historiography of the Crusades. P. 103

رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ص ٧٨٠ — جـ٧٨ .

(4) Lane - Poole : Op. Cit. P. VI

ويرى المؤرخ جب(١)أن ما أورده ابن شداد من حوادث وأخبار عن الفترة السابقة لسنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) يعتبر فيها مصدراً ثانوياً تخللت كتاباته التاريخية أخطاء لم يستطع الإفلات منها ، غير أنه منذ ذلك العام كان مثالا صادقا أمينا لما رآه من الأحداث ، إذ بفضل مكانته وقربه من صلاح الدين حتى يوم وفاته ، قد أوقفنا على الحوافز التى أثارت حماس صلاح الدين فى العديد من القرارات الخطيرة . ويعلق ابن شداد(٢)نفسه على أهمية المشاهدة الشخصية للأحداث والقرب منها بقوله : « وخدمته ( صلاح الدين ) من تاريخ مستهل جمادى الأول سنة أربع وثمانين ، وهو يوم دخوله الساحل ، وجميع ماحكيته قبلى ، إنما هو روايتى عمن اثق به ممن شاهده . ومن هذا التاريخ ماسطرت إلا ماشاهدته ، أوأخبرنى به من أثق به ، خبراً يقارب للعيان » ولاشك أن الحقيقة التاريخية تتقرر بالمشاهدة والمعاينة ، وهى المنهج التاريخى السليم الصادق ، فالذين اعتمدوا على النقل أو على الرواية التاريخية قد تتضارب آراؤهم ، وتتعارض فى الحادثة الواحدة تعارضا يوقع القارىء فى حيرة شديدة .

ولاريب أن صفة ابن شداد كفقيه ومحدث ، كانت عاملا فى إبراز دقته ، لاتهمه طرافة الخبر الذى يرويه ولاغرابته قدر ماتهمه صحته . ذلك أن رجال الحديث ، يستطيعون بشهر سلاح الجرح والتعديل(٣)أن يشقوا لأنفسهم طريق الوصول إلى الحديث الحسن أو البعد عن طريق الحديث الضعيف ، ولهذا كان رجال الحديث هم أوثق المؤرخين الذين يتصفون بالموضوعية وابراز الحقيقة فتطبيق مبدأ الجرح والتعديل فى تقييم الإسناد وصاحب السند كل ذلك جعل ابن شداد يتقصى الحقائق المحيطة

---

(1) The Aralic Sokrces., P. 58

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٨٧ .

(٣) التعديل من عدل الشاهد أى زكاه ، والتجريح من جرح الشاهد أورده ، والتعديل والتجريح من مصطلح الحديث والفقه .

به ويدون أحداثه التاريخية بروح الكفاية والصدق . وعلى أية حال ، فان ابن شداد فى كتاباته يطمئن القارىء إلى المصدر لروايته وصحتها ، إذ ينص فى معظم الأحوال على أنه رأى الأحداث التى يؤرخ لها أوسمع الأقوال التى يرويها . واقتضته الأمانة العلمية النص على أنه كان متغيباً ، ولهذا جاءت روايته صادقة بشكل لايتوفرفى أى مصدر من مصادر العصور الوسطى.

والواقع أننا لو أردنا إيراد أمثلة تدل على مشاهدة ابن شداد للاحداث والوقائع التى أرخ لها لطال بنا مجال القول إلى ذكر قائمة طويلة ، مما قد يكون هذا البحث الوجيز غير موضعه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، ماذكره ابن شداد عن فتح دربساك عام ٥٨٤هـ ( ١١٨٨م ) قائلا : « ولقد شاهدتهم ( الصليبيين ) ، وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عوض الحدار مكشفين ، فاشتد بهم الامر حتى طلبوا الأمان(١)وإذا حدث أن حضر ابن شداد مجلساً للمشورة ،أو سفارة أتت لصلاح الدين ، أو توزيع غنيمة استولى عليها المسلمون من الصليبيين ، أو استعرض السلطان أسرى من الصليبيين ، فانه كان يذكر الواقعة معلقا عليها بتعبير « وكنت من جملة الحاضرين »أو « ولقد حضرت » أو « وكنت حاضراً » ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى كتابه النوادر السلطانية (٢) . أما عن الوقائع والأحداث التى لم يحضرها ابن شداد ، أو التى يكون قد سمع عنها ، فقد اقتضته الأمانة العلمية ذكر تفاصيلها مع النص على أنه كان متغيبا. فعلى سبيل المثال يصف وقعة الرمل بالقرب من عكاسنة ٥٨٦هـ ( ١١٩٠ م ) ، ثم يعقب على الوصف بقوله : « وهذه الوقعة لم أحضرها ، فانى كنت مسافراً ، ومامضى من الوقعات شاهدت منها مايشاهده مثلى ، وعرفت الباقى مثل مايعرفه الحاضر فى هذه الأمور (٣) » .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٩١ — ص ٩٣ .

(٢) أنظر مواضع متفرقة ، ص ١١٤ ، ١٢٧ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، وغيرها .

(٣) النوادر السلطانية ص ١١٦ .

وحتى يؤكد ابن شداد لقارئه مصدر روايته وصحتها ، فانه كان لايوردها إلاعن أشخاص ثقاة ، كقوله : «ولقدحكى لى شيخ عاقل جندى» .(١) والمقصود بوصف عاقل هنا أن صاحب الرواية لايميل إلى المبالغة أو الخيال وفى مكان آخر يورد الخبر معلقا عليه بقوله : « ولقد حكى لى من أثق به »(٢) وهكذا نجد أن حس المؤرخ كان يدفع ابن شداد إلى توثيق علاقاته بأناس ، يستطيع أن يجد لديهم الأخبار والتجارب الصادقة .

وبلغ من دقته فى تدوين الأحداث ، أنه كان فى بعض الأحيان يذكر الرواية على عهدة راويها ، وفى حالة شكه فى صحتها ، كان يختمها بقوله : « هكذا ذكر والله أعلم » . وأحيانا يذكر ابن شداد الرواية على أكثر من وجه حسب سماعه لها من مصدر أو أكثر ، وخبره عن القافلة المصرية التى اعترضها ريتشارد قلب الأسد سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢ م ) — وهى فى طريقها إلى صلاح الدين بالقدس - خير شاهد على أمانته فى النقل ، ونص الخبر : «وقتل من العدو مائتى فارس على رواية ، أوعشرة أنفس على رواية ، ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف وابن الحاولى الصغير (٣) » .

ويجدر بنا الإشارة إلى أن ابن شداد التزم فى كتابته التاريخية الأسلوب السهل الدقيق والعبارة المحددة . ولم يزاحم الشعر لديه الحقيقة التاريخية . ولم يلجأ إلى استخدام الزينة اللفظية والمحسنات البديعة ، مثلما فعل معاصره المؤرخ العماد الأصفهانى فى كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » ، مما أضر بالحقيقة التاريخية ضرراً جسيما وجعل الوصول اليها أمراً صعبا .

وقد نقل عن ابن شداد كثيرون ، نذكر منهم المؤرخ ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ ( ١٢٣٢ م ) ، الذى كان شاهد عيان للاحداث ومعاصراً لها ،

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٦٧ .

(٢) النوادر السلطانية ص ٧٧.

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٢١٤ .

نظير سعداوى : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ١٨

غير أنه كان يميل إلى محاباة البيت الزنكى ، ويتحامل على صلاح الدين احيانا (١) ومما يؤخذ عليه إيضا ، أنه لم يفصح عن اسم ابن شداد كأحد المصادر التى استقى منها معلوماته . ومنهم ايضا المؤرخ المعروف بأبى شامة المتوفى سنة ٦٦٥هـ ( ١٢٦٧ م ) ، وابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ ( ١٢٩٨ م ) وسبط بن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤هـ ( ١٢٥٦ م ) ، وكمال الدين بن العديم الحلبى المتوفى سنة ٦٦٠هـ ( ١٢٦٢ م ) ، وغيرهم من المؤرخين . غير أنه مما يبعث على الدهشة ، أن ابن شداد لم يؤلف كتاباً تاريخياً غير كتابه النوادر السلطانية وهو الذى شارك فيما وقع من الأحداث التى صاحبت صلاح الدين وأولاده ، بالإضافة إلى السفارات الدبلوماسية العديدة التى قام بها . وكان من الممكن أن يلقى الأضواء على أحداث عصره بعد وفاة صلاح الدين . ولكنه وقف منها موقف المتفرج ، يدرك الحقيقة ولا يدونها ، وبذلك أضاع مادة تاريخية وفيرة ، كان من الممكن الإفادة منها .

**ابن شداد والحروب الصليبية :**

تناول ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، أحداث الحروب الصليبية ببلاد الشام والمناطق القريبة منها ، فى عصر صلاح الدين ، وخاصة فى الفترة الأخيرة منه الواقعة بين سنتى ٥٨٤هـ (وهى السنة التى التحق فيها بخدمة صلاح الدين ، و٥٨٩هـ ) وهى سنة وفاة صلاح الدين ) . وعلى الرغم من قصر تلك الفترة ، إلا انها كانت بالغة الأهمية ، فمعظم الأحداث التى أرخ لها فى تلك الفترة ، شاهدها بنفسه ، اوشارك فيها ، علاوة على أن شدة التصاقه بصلاح الدين جعلته يعرف دقائق تحركاته ، ومايعتمل فى نفسه. وقد انتهت احداث النزاع الدائربين المسلمين والصليبيين فى تلك الفترة بصلح الرملة فى شعبان سنة ٥٨٨هـ (سبتمبر سنة ١١٩٢م).

لم يكن ابن شداد المؤرخ الوحيد الذى عاصر صلاح الدين وأرخ لأحداث عصره، بل كان هناك العماد الأصفهانى ، صاحب كتاب البرق الشامى،

---

(5) Gabrieli : Arab Historians of the Crusades P. XX Vii.

الذى يشمل أحداث الفترة التاريخية الواقعة بين عامى ٥٦٢هـ ) وهى السنة التى قدم فيها إلى الشام ) ، ٥٨٩هـ ( وهى سنة وفاة صلاح الدين ) . وللعماد كتابه الآخر الذى تناول فيه أحداث الحروب الصليبية . تحت عنوان « الفتح القسى فى الفتح القدسى » اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين لبيت المقدس وسيرته ، وصراعه مع الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بدأه سنة ٥٨٣هـ وانتهى به فى سنة ٥٨٩هـ. غير أن مالتزمه العماد فى أسلوبه — كما ذكرنا — من السجع والتزويق ، جعل الحقائق التاريخية تكاد تكون غامضة . والجدير بالذكر أن العماد يعتبر آخر من يمثل مدرسة فارس والعراق التى توثر الكتابة المسجوعة ، لأن الشاميين نبذوا ذلك النوع من الكتابة . وفضلوا عليه نثراً أكثر استقامة وقربا من الطبيعة ، وهو أمر عاد على التاريخ العربى فى القرن السادس الهجرى بأجزل الفوائد ، وخير صورة لذلك ماصنفه بهاء الدين بن شداد وابو شامة[1]. وهناك ايضا المؤرخ ابن أبى طى الحلبى الشيعى ، صاحب كتاب كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين الذى عاش بين سنتى ٥٧٥هـ (١١٨٠م) و ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) وفى هذا الكتاب الذى أشار اليه أبو شامة عرضا فى كتابه الروضتين ، أرخ ابن ابى طى للسلطانين نور الدين محمود وصلاح الدين تاريخاً ، يعتبر همزة الوصل بين نهاية حكم الأول وبداية عصر الثانى . ومن الملاحظ أن أبا شامة أفاد من كتابات ابن أبى طى التاريخية التى تميز أسلوبها بالواقعية والتجرد من الزخرف وهو فى هذا يشبه طريقة ابن شداد فى الكتابة[2]. وينبغى الا يفوتنا ذكر المؤرخ ابن الأثير الذى كتب تاريخا جامعا للعالم الإسلامى . ومنه عصر صلاح الدين بطبيعة الحال ، جمع فيه أخبار الحروب الصليبية ببلاد الشام ، منذ بدايتها سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) حتى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) ، أى إلى ماقبل وفاته بسنتين .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « علم التاريخ »

امتاز الأدب فى عصر السلاجقة (٤٢٩ هـ — ١٩٠ هـ) فى فارس والعراق ، بما امتازت به الفنون عامة من ميل إلى التأنق ، فأمتلا بالمحسنات اللفظية والاستعارات ، وأصبح القول فنا كغيره من الفنون . أنظر : ( عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ) . ص ٢٠٢ — ٢٠٣

(٢) نظير سعداوى : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ٣ — ص ٦

ومن بين أولئك المؤرخين جميعا ينفرد ابن شداد بالقاء الضوء على بعض الأوضاع الحضارية فى المجتمعين الإسلامى والصليبى ببلاد الشام ، فضلاعن حرصه على إبراز تقاليد الصليبيين ونظمهم وعاداتهم. من ذلك أنه وصف راية الجيوش الصليبية وصفاً طريفاً ، تناوله قائلا : وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها ، وهى تسحب بالبغال وهم يذبون عن العلم وهو عال جداً كالمنارة ، خرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان (١) . وابان الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين ، لعب النشاط الدعائى دوره الفعال فى إثارة الحماس الدينى فى العالم الاسلامى من جهة ، وفى الغرب الأوربى من جهة أخرى . وماقام به الصليبيون ضد المسلمين فى ذلك المجال فطن ابن شداد إلى حقيقته وأهدافه. ولهذا أطلق عليه اسم الحيلة وقد أشار إلى ذلك فى نص تحت عنوان «ذكر الحيلة التى عملها المركيس فى جمع الفرنج من وراء البحر» ثم ذكر ان ذلك المركيس ( صاحب صور ) قام سنة ٥٨٦هـ ( ١١٩٠م ) برسم صورة لكنيسة القيامة وفيها قبر المسيح عليه السلام ، وعلى ذلك القبر امتطى فارس مسلم صهوة فرس ، وقد دنس ذلك الفرس قبر المسيح عليه السلام(٢). ولاشك أن الغرض من رسم تلك الصورة اثارة مشاعر المسيحيين فى الغرب الأوربى إرسال حملات صليبية إلى بلاد الشام .

ومن المعروف أن المسلمين فى عصر الحروب الصليبية ، خاصة عصر صلاح الدين ، ازدادت عنايتهم بعلم الكلام ، لتصحيح العقيدة الدينية ، والدفاع عنها فى عصر كان من أشد العصور اصطداما بالعقيدة المسيحية . وكان من الطبيعى أن يتصدى لدراسة هذا العلم رجال يؤخذون على عاتقهم توضيح العقيدة الإسلامية والذود عنها . وكثيرا ماكانت المناظرات تعقد بين رجال من المسلمين ورجال من الصليبيين ، كل يدافع عن دينه ويقيم الدليل على صحته . وقد أوضح ابن شداد فى حوادث سنة ٥٨٥هـ ( ١١٩٠م ) صورة من تلك المناظرات التى كانت تجرى آنذاك بينه وبين رينالد صاحب

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٤٩ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٣٦ — ص ١٣٧ .

محمود محمد الحويرى : الاوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ص ١٧٦ — ص ١٧٧ .

صيدا والشقيف أرنون ، الذى كان على دراية بالعربية ، وعنده اطلاع على شئ من التواريخ ، وقد ظل يتردد على صلاح الدين ويناظر المسلمين فى صحة دينه ، ويناظرونه فى بطلانه (١).

ومن الأمور التى كشف عنها كتاب النوادر السلطانية مسألة المفاوضات التى دارت بين صلاح الدين وبين ريتشارد قلب الأسد، وهى المفاوضات التى أناب فيها السلطان أخاه الملك العادل الأيوبى . وقد تخلل تلك المفاوضات مشروع زواج العادل من الأميرة جوانا أخت ريتشارد ، بغية إقرار السلام بين الجانبين الإسلامى والصليبى ، وكاد ذلك المشروع أن ينتهى بالنجاح لولا أن وقفت الأميرة فى طريق تنفيذه لرفضها الزواج من رجل على غير دينها (٢). ولاشك أن ذلك المشروع يدل على روح التقارب والمودة التى سادت بين المجتمعين الأسلامى والصليبى ببلاد الشام .

وقد ورد فى كتاب النوادر السلطانية عدد من الوثائق الهامة ، التى تلقى الضوء على العلاقات بين صلاح الدين والدول المسيحية المجاورة يضيق المجال عن ذكرها . ويرجع الفضل إلى ابن شداد فى أنه تناول أحداث الحملة الصليبية الثالثة بافاضة ووصف رائع حى ، بأسلوب سهل ، وطريقة بسيطة بعيدة عن التكلف الأدبى ، مما جعله خير مصدر تناول أحداث تلك الحملة (٣).

**خصائصه المميزة :**

اختلف ابن شداد عن غيره من المؤرخين المعاصرين له فى وصفة لأحداث الحروب الصليبية ووقائعها ، ذلك أنه لم يرض بمشاهدة المعارك التى خاضها صلاح الدين عن قرب فقط ، ولكنه حضر العديد منها بين صفوف الجند المتحاربين متجولا فى ميدان القتال ، غير عابئ بالأخطار ، وهو بذلك يعد نموذجاً طيبا للمراسل الحربى فى العصور الوسطى :

---

(١) النوادر السلطانية ص ٩٧ — ص ٩٨ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٩٥ — ض ١٩٦ .

(3) Gabrieli: Op. Cit. xxix.

فما توافر لديه من قوة الملاحظة والدقة فى وصف المعارك الحربية وذكر الأرقام الصحيحة للقتلى ،فضلا عن درايته بتشكيلات الجيوش آنذاك ، وتنظيم الأسلحة المختلفة،والخسائر والإصابات كل ذلك أهله للقيام بوظيفة المراسل الحربى Military Corresppondent. . ومن الأمثلة الدالة على دقة ابن شداد فى طريقة سرد الإحصاءات التى اشتملت على إعداد الجيوش والأسرى والقتلى سواء فى الجانب الإسلامى اوالصليبى ،ما ذكره تحت عنوان «ذكر الواقعة العادلية سنة ٥٨٦هـ»،فى تلك الواقعة انتصر المسلمون على الصليبيين ، وبلغت اعداد القتلى من الكثرة حدا ، جعل ابن شداد عندما خرج يتفقد آثار القتلى لايستطيع إحصائهم . وقد عبر عن ذلك بقوله «ولقد خضت فى تلك الدماء بدابتى ،واجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك، لكثرتهم وتفوقهم». ويبدو أنه كان مصراً على معركة العدد الصحيح أو الأقرب إلى الصحة ، بيد أنه لم يصل إلى أجابة محددة ، إذ اختلفت الناس فى عدد القتلى منهم فذكر قوم أنهم ثمانية ألف ، وقال آخرون سبعة آلاف، ولم ينقصهم حازر بأقل من خمسة آلاف[١].

**المناصب التى تولاها :**

استهوت الدراسات الدينية — كما سبق أن ذكرنا — ابن شداد فى نشأته الأولى، — فاهتم بتحصيلها حتى سار بارعاً فى الفقه والأصول،وعلى دراية تامة بالمذهب الشافعى . ولاشك أن تلك الدراسات كان لها بعيد الأثر فى المناصب التى تولاها وزاولها .فاشتغل بالتدريس،ثم بعد أن التحق بخدمة صلاح الدين، أسند قضاء القدس،وهو أول قاض تولى ذلك المنصب بعد أن عاد بيت المقدس إلى حوزة المسلمين، وفضلا عن ذلك فوض إليه النظر فى الأوقاف التى حبسها صلاح الدين بتلك المدينة[٢]. كما ولاه صلاح الدين منصب قاضى العسكر ،ومهمته الإشراف على الشئون الدينية فى الجيش،ومعه كاتب يكتب للناس،وجماعة من الجند يختارهم للشهادة [٣].ومن المناصب التى تولاها القاضى ابن شداد عضوية

(١) النوادر السلطانية ص ١٢٩ — ص ١٣٠ .

(٢) العماد الأصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدس ص ٦١٣ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ١١ ص ٩٦ .
ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٣ — ص ١٢٤

مجلس المشورة أو مجلس الشورى ، وقد أقام صلاح الدين هذا المجلس للنظر فى العمليات الحربية التى يقوم بها الجيش الإسلامى ضد الصليبيين ، والعمل بما يصدره من قرارات وآراء(١) . كذلك مارس مهنته الواعظ الدينى ، غير أنه لم يمارسها فى المساجد كما هو الحال وقتذاك ، ولكنه زاولها فى ميادين القتال ، بغية حث همة المحاربين ، ودفعهم إلى الإستبسال ، ونبذ التراخى ، وإبعاد اليأس عن قلوبهم ، وكانت الحاجة إلى الواعظ الدينى تبدو عندما تثقل وطأة الصليبيين على المسلمين فى ساحات القتال ، وهنا نلاحظ أن الواعاظ كانوا يعتمدون على نجاحهم فى مجالس الوعظ ، على الآيات القرآنية التى تدعو إلى الجهاد ونبذ الاستسلام والأحاديث النبوية وسير الأبطال المسلمين فى الغزوات ، ونحو ذلك ، وبذلك يتم التأثير على السامعين بنجاح كبير (٢) .

ولم تقتصر مهمة ابن شداد على الوظائف التى تولاها فى الدولة الأيوبية ، بل إن مكانته وما تمتع به من شخصية وقورة ، أهلتاه لأن يصبح سفيراً فى بعض المهام السياسية والخاصة التى تتعلق بمصالح الأيوبيين . والواقع أن خبرته كسفير فى المهام السياسية ، تعود إلى منذ أن كان فى خدمة المواصلة ، وما أحرزه من نجاح فى هذا المجال دفع صلاح الدين إلى الوثوق به ، والإعتماد عليه فى إبلاغ رسائله وتعليماته إلى الخليفة العباسى ، وأبنائه وأمراء المناطق المجاورة للدولة الأيوبية . فعندما وصل إلى السلطان صلاح الدين خبر مجئ الجيش الألمانى — وهو جزء من الحملة الصليبية الثالثة — سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) فى أعداد هائلة ، عظم عليه الأمر ، ورأى حث الناس على الجهاد فضلا عن إعلام الخليفة العباسى بذلك ولم يجد من يقوم بتلك المهمة أفضل من ابن شداد فكلفه بها بعد أن أمره بالمسير إلى سنجار والجزيرة والموصل وإربل ، لدعوة حكامها إلى الجهاد (٣) . وبعد وفاة صلاح الدين .

---

(١) النوادر السلطانية ص ٢١٢ .
نظير سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ص ٣٦ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٢١٦ .
عبد اللطيف حمزه : أدب الحروب الصليبية ص ٢٠٤ — ص ٢٠٦ .
(٣) الفتح القسى ، ص ٣٣٢ .
النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٦ ورقة ١٣٠ .

وانتقال ابن شداد إلى حلب ملتحقاً بخدمة الملك الظاهر ، انفذه الأخير فى سفارة إلى الخليفة العباسى سنة ٥٩٠هـ، فى مهمة لم تحددها المصادر المعاصرة(١). كما كان ابن شداد أحد أعضاء الوفد الذى أرسله صاحب حلب سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٦م) إلى مصر لتسوية النزاع القائم بين الملك الأفضل صاحب دمشق وأخيه الملك العزيز صاحب مصر ، والتوفيق بينهما (٢). وعلى أية حال ، فقد

امتلأت المصادر المعاصرة بأخبار السفارات التى كان يعهد بها إلى ابن شداد داخل محيط الأسرة الأيوبية ، لأنه وقف من جميع أفراد البيت الأيوبى موقفاً محايداً ساعياً بالخير بينهم .

**وفاة ابن شداد :**

عرف الناس قدر ابن شداد فى حياته ، وبلغ احترامهم وتقديرهم له حداً جعل علية القوم والرؤساء ينزلون عن دوابهم اليه. وقد وصفه السبكى(٣) بقوله: «وكان إماما فاضلا ثقة ، عارفا بالدين والدنيا رئيساً مشاراً إليه ، متعبداً متزهداً نافذ الكلمة . . . . اجتمعت الألسن على مدحه والقلوب على حبه لمكارمه وأفضاله ونفعه الطلبة فى العلم والدنيا » .

وبعد سنوات طويلة قضاها فى الدراسة والتدريس والتأليف والسفارات وأعمال البر والتقوى ، صار ابن شداد فى أخريات عمره شيخاً واهناً ، ضعيف الذاكرة لم يعد بامكانه التحقق من معرفة زائريه ، ويقول تلميذه المؤرخ ابن خلكان(٤) الذى كان ملازماً له فى الأيام الأخيرة من حياته : « وظهر عليه الخرف، بحيث إذا جاءه الإنسان لا يعرفه ، وإذا عاد قام يسأل عنه ولا يعرفه ، واستمر على هذه الحال مديدة ، ثم مرض أياماً قلائل وتوفى يوم الأربعاء

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ٣ ص ٩ .
(٢) مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٥٨
الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣٠
(٣) طبقات الشافعية ، ج٥ ص ١٢١ .
(٤) وفيات الاعيان ، ج٧ ص ٩٩ .

١٤صفر سنة ٦٣٢هـ ( ١٢٣٤م ) رحمه الله تعالى بحلب .... وحضرت الصلاة عليه ودفنه وماجرى بعد ذلك».وفى اللحظة التى ارتفعت فيها روح ابن شداد إلى خالقها ، يكون قد عاش حوالى قرن من الزمان ، أو ثلاثا وتسعين سنة على وجه التحديد .

ولما لم يكن لابن شداد وارث ، فقد أوصى بجعل داره خانقاه(١) للصوفية(٢) ، وكان قد أوصى أيضاً أن يقوم كل سبعة قراء بقراءة القرآن الكريم أمام كل شباك من الشباكين اللذين للتربة التى بناها بهدف أن يقرأ عندقبره كل ليلة ختمة كاملة ، فصار كل واحد من القراء الأربعة عشر يقرأ نصف سبع بعد صلاة العشاء . وظلت القراءة سارية على هذا الوضع ، إلى أن فارق ابن خلكان حلب متوجهاً إلى القاهرة فى جمادى الآخر سنة ٦٣٥هـ ( ١٢٣٧م ) على أن ذلك الوضع لم يظل طويلا ، إذ يقول ابن خلكان (٣): ثم بعد ذلك تغيرت تلك الأمور ، وانتقضت قواعدها ، وزال جميع ذلك على مابلغنى .

وكان طبيعياً أن يعرف الناس قدر الرجل الصالح المؤمن ابن شداد بعد وفاته ، كما عرفوا قدره أثناء حياته ، فظل قبره يزار ، وجرى الاعتقاد أن الدعاء مستجاب عند قبره (٤) .

**دكتور / محمود محمد الحويرى**

---

(١) خانقاه لفظ فارسى معناه البيت ، ثم خصص اللفظ للمكان الذى يقيم فيه الصوفية للعبادة . أنظر ( : السلوك ، جـ١ ص ١٨٢ حاشية ٤ تحقيق الدكتور : محمد مصطفى زيادة ) .

(٢) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ص ١٠٧ .

(٣) وفيات لاعيان جـ٧ ص ١٠٠ .

(٤) كنوز الذهب جـ١ ورقة ٩٣ .

## المصادر والمراجع العربية


أحمد بن إبراهيم الحنبلي: (ت٨٨٤هـ ـ ١٤٧٩م) أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل الحلبي « كنـــوز الذهب فى تاريخ حلب » مخطوط فى ثلاثة أجزاء ، دار الكتب المصرية رقم ٩٦٣٨

أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام «( القاهرة ١٩٧٢م ) .

الادفوى : (ت٧٤٨هـ ـ ١٣٤٧م ( كمال الدين أبو الفضل جعفر بن على الأدفوى الشافعى .« الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ( القاهرة ١٩٦٦م ) .

بروكلمان (كارل) : تاريخ آداب اللغة العربية :

جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية .

حاجى خيلفة : (ت١٠٦٧هـ ـ ١٦٥٧م) مصطفى كاتب شلبى «كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون» الجزء الأول ( ليبسك ولندن ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨م) :

حسين فوزى النجار : « التاريخ والسير » ( القاهرة ١٩٦٤م. ) .

ابن خلكان : (ت٦٨١هـ ـ ١٢٨١م) شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم « وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان « تحقيق د. احسان عباس ٨ أجزاء ( بيروت ١٩٦٩م ) .

الذهبي : ( ت٧٤٨هـ—١٣٤٧م ) محمد بن احمد المعروف بالذهبي .« دول الاسلام » الجزء الثانى ( حيدر آباد ١٣٣٧هـ ) .

رنسيمان ( ستفن) : تاريخ الحروب الصليبية » ترجمة د.السيد الباز العرينى ٣ أجزاء ( بيروت ١٩٦٧ —١٩٦٩م) .

السبكى : ( ت٧٧١هـ—١٣٦٩م) عبد الوهاب بن على بن السبكى .«طبقات الشافعية الكبرى» الجزء الخامس ( القاهرة ١٣٢٤هـ ) .

السيد الباز العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ( القاهرة ١٩٦٢م). « مصر فى عصر الأيوبيين» ( القاهرة ١٩٦٠م )

أبو شامة : ( ت٦٦٥هـ — ١٢٦٦م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان . « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية »،جزءان القاهرة ١٢٨٧م( . ورجعنا إلى الجزء الأول تحقيق د . محمد حلمى محمد أحمد طبعة القاهرة ١٩٦٢م .

بن الشحنة : توفى فى حدود سنة ٨٠٠هـ ( أبو الفضل محمد «الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب »(بيروت ١٩٠٩م) .

ابن شداد : ( ت٦٣٢ —١٢٣٤م) بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع . « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » تحقيق د. جمال الدين الشيال ( القاهرة ١٩٦٤ م ) .

عبد اللطيف حمزة : « الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول .( القاهرة ٧لى١٩م).
*«أدب الحروب الصليبية»(القاهرة ١٩٤٨م).
*الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية . «(القاهرة بدون تاريخ).

عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ( القاهرة ١٩٥٩م)

العماد الأصفهانى : ( ت ٥٩٧ هـ —١٢٠١م ) أبو عبد الله محمد : « الفتح القسى فى الفتح القدسى » تحقيق محمد محمود صبح ( القاهرة ١٩٦٥م. )

أبو العماد الحنبلى : ( ت١٠٨٩هـ —١٦٧٨م ) ابو الفلاح عبد الحى بن أحمد . « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ٨ أجزاء ( القاهرة ١٣٥١ م ) .

الغزى : « نهر الذهب »

أبو الفدا : ( ت٧٣٢هـ —١٣٣١م) إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة « المختصر فى اخبار البشر ٤ أجزاء ( القاهرة ١٢٨٦م) .
ترجمة د.صالح احمد العلى (بغداد ١٩٦٣م).

ابن فضل الله العمرى : ( ت٧٤٢هـ —١٣٤١م ) شهاب الدين أحمد بن فضل الله . «التعريف بالمصطلح الشريف» ( القاهرة ١٣١٢ هـ )

القلقشندى : ( ت٨٢١هـ —١٤١٨م) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا « ١٤. جزء ( القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩م ) .

أبو المحاسن : ( ت٨٧٤هـ — ١٤٦٩م ) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى . « النجوم الزاهرة فى ملوك ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء ( دار الكتب المصرية ١٩٣٥م) .

محمد عبد الغنى حسن : «التراجم والسير» (القاهرة ١٩٥٥م).

محمود محمد الحويرى : «الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر» ( القاهرة ١٩٧٩م)

يامخرمة : ( ت٩٠٣هـ —١٤٩٧م) عبد الله بن أحمد بن على بن أحمد بن ابراهيم «قلادة النحر ، باعيان وفيات الدهر » الجزء الخامس ، مخطوط بدار الكتب رقم ٤٤١٠ تاريخ

المقريزى : (ت٨٤٥هـ—١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على « الساوك لمعرفة دول الملوك » تحقيق د.محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٩) .

نظير حسان سعداوى : «المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين» (القاهرة ١٩٦٢ م ).

النعيمى : ( ت٨٢٧هـ—١٤٢٣م) عبد القادر بن محمد ابن عمر النعيمى .«الدارس فى تاريخ المدارس» جزآن ( دمشق ١٩٥١ م) .

النويرى : ( ت٧٣٢ هـ —١٣٣٢ م ( .احمد بن عبد الوهاب نهاية الأدب فى فنون الأدب ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ .مخطوطة ومصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

هرنشو : علم التاريخ « ترجمة وتعليق عبد الحميد العبادى ( القاهرة ١٩٤٤ م ) .

ابن واصل : ( ت٦٩٧هـ — ١٢٩٨م ) جمال الدين محمد «بن سالم مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب» الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٦٠ م ) والجزأين الرابع والخامس تحقيق د . حسنين ربيع مراجعة د . سعيد عاشور ( القاهرة ١٩٧٢ — ١٩٧٧ م ) .

ابن الوردى : ( ت٧٤٩ هـ — ١٣٤٩م) ابو حفص عمر بن فطر بن عمر « المختصر أو تاريخ ابن الوردى» جزءان ( القاهر ١٢٨٥ م )

دائرة المعارف الإسلامية : مقالات ابن شداد ، وعلم التاريخ »

فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات العربية الجزء الثانى : القسم الأول سنة ١٩٥٦ م ص ٢١٢ تحقيق لطفى عبد البديع ، القسم الثانى سنة ١٩٥٧ م ص ١١ تحقيق فؤاد سيد .

- Brockelmann (C.) :
geschichte der Arabischen
Litter ature - Supp. I. 5 Leiden 1937-1940

- Gabrieli (E.) :
Arab Historians of the crusades.
Translated from tfle italian by t.J
Costella. (london, 1969).

- The Arabic Historiography of the
Grusades from the Historians of the
Middle East. Edited by Bernard
Lewis and P.M. Holt. (London, 1962).

Gibb (H.A.R.) : The Arabic Sources of he Life of Saladin. AJournla of Mediaeval Studies. January, 1950.
Saladin. A Journal of Mediaeval Studies. January, 1950.

Hitti (P.K.).: History of the Arabs. Tenth edition. (Lonoon,1971).

Huart (C.) : AHistory of Arbaic litterature. (Lndon 1903).

Lane—Poole ( 8 ): Saladin and the fall of the Kingdouu of jeruealew (London) 1899.